الباب الأول

سيرة حياة
الشيخ الظواهري

(١)

يتضمن هذا الباب عرضًا سريعًا لبعض الملامح التاريخية فى حياة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى، على نحو ما تمكننا من تلمسها وتحقيقها فيما رواه هو عن حياته، وقد قدمنا ما رواه بطريقة أقرب إلى الحقيقة والواقع من طريقة روايته هو؛ حتى إن روايتنا تبدو مخالفة لروايته من حيث الترتيب والتسبيب، لكنها فى الواقع أقرب إلى الحقيقة، بما تحتويه من عناصر المنطق واحترام تسلسل التاريخ، حتى وإن بدا أن صياغة الوقائع على هذا النحو بالأمر الصعب.

كما أن صياغتنا لتاريخ الرجل على نحو مخالف لاستطراداته وترتيبها لم يكن من باب التعسف، إنما هى فى الواقع أمر جوهرى فى نظر الذين يريدون رسم الحياة على نحو ما سارت من خلال مدارستهم لما يرويه صاحبها عنها على طريقته التى تؤثر (أو تلجأ إلى) بعض التقديم أو بعض التأخير أو بعض التركيز، والتى تعنى ببعض الإضاءة الكثيفة هنا، وبتقليل الإضاءة هناك.

(٢)

وقد ذكر الدكتور محمد عبدالجواد فى كتابه «حياة مجاور فى الجامع الأحمدى» الذى صدر عام ١٩٤٧ أن أسرة الظواهرى تنسب إلى «الظواهر» والمقصود ظواهر مكة أى ضواحيها.

وذكر أن الشيخ إبراهيم الظواهرى الكبير جد الإمام الأكبر عاش ١٣٥ عامًا حج فيها ٧٢ حجة، وصام الدهر مائة عام. وقد خلف أربعة ذكور، هم إبراهيم وهو أكبرهم، وسعيد وعبدالكريم ومحمد، وقد توفوا جميعًا ما عدا الشيخ إبراهيم. وكان زواجه بعد الستين من عمره، وتوفى سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨م).

أما إبراهيم والد الشيخ الظواهرى فقد درس فى الجامع الأزهرى، ولما توفى والده عاد إلى بلده المجفف مركز الصوالح (ههيا الآن) شرقية، وأقام هناك عشر سنوات جمع فيها ثروة قوامها ٤٠ فدانًا من الأرض كوَّن منها ما يسمى «كفر الشيخ الظواهرى». ثم حُبب إليه العلم فعاد إلى الأزهر، وانتظم فى سلك طلابه، وحضر على كبار شيوخه كالخضرى والأشمونى والعروسى، رحمهم الله؛ حتى أذن له بالتدريس فى عهد الشيخ العروسى سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م).

وقد مكث الشيخ إبراهيم الظواهرى يدرس بالأزهر كبار المؤلفات فى علوم اللغة والدين، وكان شيخًا لرواق «الشراقوة» إلى أن عين شيخًا للجامع الأحمدى فى سنة ١٣١٢هـ (٥ من أبريل سنة ١٨٩٤م) فذهب إلى طنطا وبقى هناك ١٤ عامًا، أتم فيها كثيرًا من الإصلاح، وأسس كثيرًا من المؤسسات الخيرية بطنطا، وفى ضيعته (كفر الشيخ االظواهرى) وفى ضيعات أخرى كانت شركة بينه وبين أولاد إخوته، إلى أن اختاره الله إلى جواره فى يوم ٥ من أغسطس سنة ١٩٠٧ (١٣٢٥هـ) ودفن بمسجده الخاص به فى طنطا.

(٣)

وقد وصف الدكتور محمد عبدالجواد البيت الذى نشأ فيه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى، فقال: «إنه كان أضوأ منزل بطنطا ليلاً، ومسقطًا للعافين والسائلين نهارًا، فبابه الشمالى المطل على ترعة الجعفرية واسع المدخل، على جانبيه حجرتان أو مندرتان تغصان بالزائرين من خيرة رجال الدين وأحوج رجال الدنيا فى الهزيع الأول من الليل؛ وبابه الجنوبى المطل على شارع السباعى لا يقل

اتساعًا عن الباب الشمالى، وعن يمين الداخل منه حجرة تنعقد فيها حضرة السادة الشاذلية صباحًا ومساءً، على يد مقدمهم «أخينا» الشيخ محمد الأحمدى، أصغر أنجال الشيخ، وفيما عدا ذلك فالمنزل عامر بالغادى والرائح من طلبة العلم والإحسان، والمسافر والمقيم، من الأقارب والواصلين».

«وتجاه منزله بشارع «السباعى» بالكفرة الشرقية بنى الشيخ مسجدًا خاصّا فى سنة ١٩٠٦ أعد فيه مدفنه ومقامه. وقد وقف عليه ١٤ فدانًا من أجود أطيانه بناحية العلاقمة مركز ههيا شرقية، وعقارًا بطنطا. وبمسجده هذا تقام الشعائر الدينية، وتؤدى فريضة الجمعة؛ وتقام حضرة الإخوان الشاذلية صباحًا ومساءً. وله وقف على قراءة ربع القرآن كل يوم، وربع دلائل الخيرات، وعلى عالم يعلم الناس شئون دينهم، وأحباس أخرى على خيرات توزع فى المواسم والأعياد».

«وقد أسس الشيخ مساجد أخرى فى ضياعه وضياع أولاد إخوته، تقام بها الشعائر الدينية، ولها وقف خيرى يصرف ريعه على ذلك».

«وعلى الرغم من كثرة هذه الخيرات والأحباس، فقد ترك الشيخ حوالى ٢٥٠ فدانًا تركة مباركة طيبة».

«وقد كان للشيخ الأحمدى الظواهرى شقيقان أكبر منه كانا عالمين أيضًا، ومن وصف الأستاذ محمد عبدالجواد لهما نجتزئ:

«الشيخ محمد الشافعى: تخرج فى سنة ١٣١٥ هـ ١٨٩٧م وتوفى سنة ١٩٤٠م بعد أن ربى كثيرًا من العلماء والقضاة، وكان شيخًا لمعهد الإسكندرية، وعضوًا عاملاً باحثًا فى هيئة كبار العلماء، فأخرج رسائل فى فنون كثيرة».

«والشيخ محمد الحسينى: تخرج فى سنة ١٩٠٣م ـ ١٣٢١هـ وتوفى سنة ١٩٤٥ وكان من خيرة العلماء الصالحين، خرج كثيرًا من العلماء والمربين، والقضاة الشرعيين، وانتدب للتفتيش فى المعاهد الدينية مرتين. وله أبحاث قيمة ومؤلفات عدة. وكان أستاذ التفسير فى تخصص المادة بكلية أصول الدين، وهو

فوق هذا كله رجل اجتماعى، لو قدر له تولى مناصب الدولة الإصلاحية، لكان من خيرة المصلحين الاجتماعيين. ومن مميزاته أن فكره ليس محبوسًا فى الدائرة العلمية، بل ترى من خلال حديثه ما يملكه من حرية فى الرأى، وطلاقة فى التفكير والبيان، واستقلال فى الفهم، لا يمنعه من نقض آراء القدماء والمحدثين، مع دماثة فى الخلق ورقة فى العاطفة».

وحين تقدم الظواهرى الابن لامتحان العالمية كان والده يشغل منصب شيخ الجامع الأحمدى منذ ثمانى سنوات.

(٤)

يعترف الشيخ الظواهرى فى مذكراته التى أملاها لابنه بطبيعة دراسته فى الأزهر، وقلة انتظامه فى هذه الدراسة وهو يشير إلى أنه لم يكن مواظبًا على التعليم النظامى على نحو روتينى، وإنما كان قد اختط لنفسه منهجًا تعليميًّا يمكنه من التحصيل والإلمام والاستيعاب والتفوق دون التزام بالحضور أو بالروتين التعليمى المعتاد، وهو يقول:

«... الحق أننى كما قال الناس: لم أكن أواظب على حضور الدروس بالأزهر، بل كنت أفضل أن أذاكر الدروس وحدى بالمنزل، ولكى أشرح السبب فى ذلك لابد أن أصف الحالة التى كان عليها الأزهر وقتئذ من ناحية العلم والتعليم، وكذلك من الناحية الاجتماعية».

«... لم يكن هناك للتدريس بالأزهر نظام خاص، ولم تكن هناك شروط لقبول الطلبة فيه، بل كان يدخل الأزهر للتعليم كل من شاء أن يدخله، وكان يجوز لمن دخل أن يقيم فيه ما شاء أن يقيم، وأن يختلف إلى مَنْ شاء ومَنْ يشاء من العلماء فى الحلقة أو الحلقات التى يختارها لنفسه بدون أى رقيب أو مباشر، فإذا ما آنس الطالب فى نفسه بعد زمن طويل أو قصير المقدرة على التدريس لغيره، جلس إلى تلقين العلم حيث يجد مكانًا خاليًا، وعرض نفسه على

الطلبة، فإذا وجد هؤلاء كفايته لا تزال ناقصة، انصرفوا عنه، وإذا وجدوها كاملة التفوا حوله، وحينئذ يجيز له شيخ الأزهر نهائيّا ويسميه عالمًا».

(٥)

ويشير الظواهرى إلى أنه أفاد من التطوير اليسير الذى أدخله الشيخ العباسى المهدى على نظام التعليم الأزهرى:

«فى المدة التى تلقيت فيها العلم، وهى العشر السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان هذا هو حال التعليم بالأزهر، مع فارق أنه منذ عهد الشيخ العباسى المهدى، صار نوال العالمية بواسطة الامتحان، وصار لهذه الشهادة براءة يعطيها الخديو من ثلاث درجات: أولى وثانية وثالثة، حسب تفوق الطالب».

(٦)

ويعترف الشيخ الظواهرى اعترافًا جميلاً بأنه لم يكن يعرف معنى «النحو» حين بدأ الدراسة فى الأزهر، وكان عليه أن يدرس فى كتاب «شرح الكفراوى»:

«... لما أرسلنى والدى للأزهر لطلب العلم، بعد أن حفظت القرآن وتعلمت القراءة والكتابة وبعضًا من الحساب فى الكتاب كما كانت العادة وقتئذ، وجدتنى أمام كتاب فى النحو اسمه «شرح الكفراوى» جرت التقاليد فى الأزهر أن يكون هو أول شىء يدرسه الطالب عند قدومه، فوجدت صعوبة شديدة فى فهمه فى بادئ الأمر، لأنى لم أكن أعرف قبل ذلك شيئًا مطلقًا عن النحو، بل لم أكن أعرف ما معنى كلمة النحو، ومع ذلك فكان علىّ وعلى جميع الطلبة المبتدئين مثلى، أن نواجه فى هذا الكتاب بأوجه البسملة، وبأن الكلام مبتدأ مرفوع بالابتداء، و«هو» ضمير فصل على الأصح، مع أنى لم أكن بعد أعرف ما هو المبتدأ أو الخبر، ولا يمكن معرفتهما إلا فى وسط الكتاب».

(٧)

ويشير الظواهرى إشارة غير واعية إلى أنه على الرغم من هذه السلبيات الظاهرة، فقد كانت هناك إيجابيات كفيلة بالتغلب عليها، وبخاصة لمن كانوا مثله راغبين فى إتمام تعليمهم، وهو يحلل ما أدركه من صعوبة الاستمرار على المنهج، وما جعله يقبل على دروس الشيخ محمد عبده الذى كان يتميز عن باقى زملائه بمنهج تربوى قادر على الأخذ بيد أمثال الظواهرى:

«ولما كان اختيار الأساتذة فى ذلك الوقت متروكًا لهوى الطالب كما أسلفت، فقد عنّ لى أن أستعرض أساتذة النحو جميعًا عساى أجد واحدًا منهم يتدرج مع الطلبة تدرجًا يتفق مع أقدمياتهم فى التعلم، ولكنى وجدتهم جميعًا سواء فى طريقة التدريس، فقد كانوا يمسكون الكتاب يفسرون جمله وكلماته، بصرف النظر عن مقدار إدراك الطلاب الجالسين أمامهم، وقد يكون بالحلقة الواحدة أمام الأستاذ طالب مضى عليه فى التعلم عشر سنوات، وآخر ابتدأ توّا، ومع ذلك فالمفروض أن كليهما يفهم ما يقوله الأستاذ».

«وما يقال عن كتب النحو يقال أيضًا عن البلاغة والمنطق والأصول والتفسير والحديث، وكذلك عن باقى العلوم الأخرى التى كان على الطالب أن يدرسها قبل التقدم لامتحان العالمية، بل إن كتب هذه العلوم كانت تمتاز عن كتب النحو بميزة أخرى تجعلها أكثر تعقيدًا وتشويشًا لذهن الطالب، وأكثر إبعادًا له عن جوهر العلم، فإن جميع هذه الكتب مليئة بالتأويل والاحتمال، مما يضيع الوقت حتمًا، ويفوت على الطالب المبتدئ الغرض الأصلى من تفهم العلم فى ذاته».

«إنك لتجد أن أكثر أبحاث هذه الكتب يدور حول «عبّر بكذا»، «كلامه يشمل صورة كذا»، «والصواب حذف كلمة كذا»، «الصواب التفريع»، «الصواب إبدال الواو بالفاء»، «هذا مكرر مع ما قبله»، إلى غير ذلك.. ومع أن هذه

الطريقة مفيدة جدّا فى إيجاد ملكة إدراك الدقائق فى اللفظ والمعنى، ودقة التصور والتخيل وإدراك المعنى الواحد على صور مختلفة، وحله وتركيبه بأشكال متنوعة، إلا أنه يجب ألا يكون هذا على حساب الغرض الأصلى من التعليم الدينى، وهو الإلمام بالعلم فى ذاته بصرف النظر عن الألفاظ، فبعد تعرف فقه العلم ومادته، لا بأس من النظر إلى تحقيق الصور العلمية المشتبهة أو إذا كان المؤلف قد أصاب أو أخطأ فى اللفظ، وكانت هذه هى طريقة الشيخ محمد عبده فى تدريسه، ولذلك كنت لا أتردد على حلقة أستاذ غيره».

(٨)

ويصل الشيخ الظواهرى إلى أن يقرر أنه قرر بينه وبين نفسه أن يقتصر على دروس الأستاذ محمد عبده وحدها، وأن يدرس بقية العلوم بنفسه فى المنزل:

«... ولذلك فقد وجدت أن استماعى للأساتذة الآخرين غير الشيخ محمد عبده مضيعة للوقت بدون فائدة كبيرة، ووجدت أن الأفيد لى أن أدرس بنفسى هذه العلوم فى المنزل، فكنت ألخص فى مذكرات خاصة كل ما تحويه هذه الكتب من فقه العلم وجوهره، وأهمل ما ليس من كنه العلم وفقهه، فكنت أعرض عن التأويلات والاحتمالات اللفظية والفلسفة الخيالية، وبذلك أمكننى أن أقتطف من بطون هذه الكتب المطولة، ما وجدته مفيداً حقّا فى إيصالى لهدفى، وهو إدراك جوهر العلم وروحه».

(٩)

ومع هذا، فإن الظواهرى يقر بالآثار السلبية التى نشأت عن تباعده عن مجتمع الطلبة الأزهريين ومحاضرات الأزهر، وهو يعطى مهاجميه العذر فى الفكرة التى كونوها عنه نتيجة للأسلوب الذى اتبعه فى تحصيله للعلم:

«. . فأنت ترى إذًا أن ظهورى فى حلقات الدرس فى الأزهر، لم يكن كظهور باقى الطلبة، وكذلك لم أكن مثابرًا على التواجد فى الحى الأزهرى والاشتراك مع الطلبة هناك فى المأكل والمشرب وباقى اجتماعياتهم الأخرى، ومن هنا تولدت الفكرة الخاطئة التى شاعت فيما بعد عن انصرافى عن العلم والتعلم، فإن قلة ظهورى فى الأزهر أثناء اشتغالى بالدرس فى المنزل، هى التى دعت لهذه الإشاعة».

(١٠)

ويرى الظواهرى أن تأثير الشيخ محمد عبده فى شخصيته لم يقف عند حد تأثير الأستاذ المحبوب فحسب، وإنما تعدى ذلك إلى آفاق أخرى فيما يتعلق بفهمه للإصلاح الأزهرى وللتطوير التربوى، ولأداء العلماء.

لكن الظواهرى مع هذا حريص على أن يثبت أنه لم يكن تابعًا تمامًا للشيخ محمد عبده فى كل سلوكياته واتجاهاته.

وهو يروى أنه كتب عام ١٩٠٤ مذكرة بعنوان: «نقد للشيخ محمد عبده فيما أراه غير لائق به من آراء وتصرفات»، وفى هذه المذكرة يلوم الشيخ محمد عبده أشد اللوم لأنه قبل أن يجلس قاضيًا فى المحاكم المعروفة بالمحاكم الأهلية (تفريقًا لها من المحاكم الشرعية)، وهو يرى أن السبب فى كتابة هذه المذكرة «كان إيمانه بأن الشيخ محمد عبده ينبغى أن يكون مثلاً أعلى للعلماء فى سعة العقل، والاحتفاظ بالكرامة، والابتعاد عن الجمود، والأخذ بالآراء الحديثة النافعة والبعيدة عن مجرد التقليد».

ويروى الظواهرى أنه ظل على هذا الرأى حتى بعد أن تقدم به السن والخبرة، وأنه بعد عشرين عامًا كتب لوزير الحقانية يخبره برأيه هذا الذى كان رآه فى حياة الشيخ محمد عبده، مكررًا اعتراضه على اعتراف القضاء الأهلى بالزنا، وبالخمر، وبالربا.

(١١)

وربما كان أهم الأحداث فى شباب الظواهرى هو نجاحه فى امتحان العالمية أمام اللجنة التى ترأسها الشيخ محمد عبده، وقد كان الظواهرى سعيداً بأن يكرر رواية قصة هذا الامتحان، مشيرا إلى أن الصدفة هى التى جعلت الأستاذ الإمام يرأس امتحان العالمية، نظراً لمرض الشيخ سليم البشرى:

«كان المعروف إلى ما قبل الامتحان بيومين، أن رئيس لجنة الامتحان التى سأجلس أمامها هو الأستاذ الجليل الشيخ سليم البشرى، إلا أنه قد تقرر فجأة أن يكون الرئيس هو الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبده، لأن الشيخ سليم البشرى قد مرض، فكان ذلك التغيير سبباً فى ازدياد الاعتقاد عند الناس بأننى لا بد سأرسب فى الامتحان، لأن الشيخ محمد عبده كان لا يُخفى امتعاضه من والدى بسبب اتصاله بالأولياء وكثرة زيارته لقبورهم».

. . . . . .

«. . . وفعلا ظهر من الشيخ محمد عبده شىء من آثار هذا النفور فى لجنة الامتحان كما تنبأ الناس. . فإنى لم أكد أجلس إلى اللجنة وأهم بتقبيل يده كما يفعل الطلاب الممتحنون عادة، حتى أعرض الشيخ بعض الشىء عن إعطاء يده بجملتها لى أقبلها، فقد جذبها سريعاً، واكتفى منى بلمس أصابعه فقط، ثم قال: «لقد سماك أبوك بالأحمدى نسبة إلى أحمد البدوى الولى بطنطا، فلنر الآن ماذا سيكون من شأن هذا الولى معك!!».

«كان لهذه العبارة، مصحوبة بخطف يده أثناء محاولتى تقبيلها، أثر سيئ فى نفسى، فانقبض صدرى واسودت الدنيا فى عينى، ولما طلب منى أن أبتدئ تأخرت عن الكلام برهة من فرط تأثرى، ولكنى ما لبثت أن استجمعت شجاعتى وتملكنى شىء كثير من الجلد، ثم أخذت أتكلم فى الموضوع الذى طلب منى الكلام فيه فأحسست فى داخليتى أنى أحسن الكلام، وعندئذ انطلقت أتحدث

بالطريقة التى رسمتها لنفسى من قبل، وهى الطريقة المغايرة لما اعتاد الطلاب والعلماء الأزهريون أن يعالجوا بها المسائل، فقد كنت أقفز توّا إلى جوهر العلم الذى أنا بصدده وأقرره بعبارة مختصرة، لكنها جامعة وبعيدة عن التأويلات والتشويشات التى اعتاد عليها الطلاب، وهذه هى الطريقة التى رسمتها لنفسى طوال مدة دراستى».

(١٢)

هكذا يجيد الشيخ الظواهرى تصوير لحظات الامتحان بعين كانت منتبهة إلى ما قد يظهر من امتعاض الشيخ محمد عبده، أو تحيزه ضده، وكانت منتبهة أيضًا إلى رد فعله هو تجاه ما أحسه من هذا الجو، ونحن نرى فى تصوير الظواهرى لامتحانه فى العالمية قطعة بيانية تحفل بالتصوير النفسى الدقيق، كما تعبر تعبيرًا صادقًا عن طبيعة الامتحانات الشفوية، وسلوك اللجان التى تتولى هذه الامتحانات:

« . . . والحق أننى أثناء الامتحان أعجبت بنفسى (وأنا) أقرر تلك المسائل الشائكة بهذا الأسلوب الجديد الصافى الذى ابتكرته، إذ أنى ظننت أنى جعلت البحث به سائغًا مرسلاً، بل إنى أيقنت فى نفسى أن الشيخ محمد عبده لابد قد سر به أيضًا، وأنه لابد سيشعرنى بذلك تشجيعًا لى».

«وانتهيت من تقرير البحث وانتظرت إشارة إعجاب الشيخ عبده أو على الأقل إشارة عدم امتعاضه، لكنى لم أظفر بها، بل ظل الشيخ صامتًا، ونظر إلىّ كما نظر باقى أعضاء اللجنة نظرة لم أفهم كنهها، فلا هى نظرة المبتسم فأعدها إشارة إعجاب، ولا هى نظرة مغضبة فأعدها إشارة المشمئز».

«والحق أنه قد شق على نفسى وقد ظننت خيرًا كثيرًا بهذا الأسلوب وقدرت أنه يستحق الإعجاب (ألا) أظفر بشىء ولو قليل من هذا الإعجاب، وحينئذ تملكتنى نزعة الثقة بنفسى وبأسلوبى، فولدت عندى عزمًا قويًا وإقدامًا شديدًا،

وأصررت فى نفسى أن أنتزع إعجاب الشيخ وإعجاب اللجنة انتزاعًا، فخطر لى أن أعاود الكلام فى نفس البحث ولكن بأسلوب آخر وألفاظ وتشابيه مغايرة، وبدأت ذلك بأن قلت كلمة «والحاصل» وهى الكلمة التى تشعر أنى أريد معاودة الكلام، فعندئذ أنطق الله لسان الشيخ بالإعجاب الذى كنت أنتظره، فقال: لماذا تريد استئناف الكلام.. لقد تكلمت كلامًا طيبًا جدًا، وعالجت البحث علاجًا رائعًا جدًا، والأحسن أن تنتقل للبحث الآخَر».

«كانت عبارة الشيخ هذه كأنها البلسم على نفسى، فاندفعت أقرر المباحث الأخرى التى طلبها منى هو وأعضاء اللجنة، وأقبلوا يناقشوننى فيها، وفجأة قال الشيخ محمد عبده: «إن ترتيبك فى أبحاثك وطريقة عرضها طريقة جميلة، وسأتخذ معك فى ترتيب الأبحاث طريقًا غير الطريق العادى لأعرف مقدار علمك الحقيقى»، فقلت: «كما تريد ياسيدى»، فأخذ يقلب أوضاع المسائل ويلوى اتجاهات الأبحاث، وصار يخرج من علم إلى آخر، ثم يعود إليه ثانية، ثم يخرج إلى آخر ويعود للأول، وأنا أسايره فيما ذهب إليه من الإفراط فى محاولة إشكال البحث علىّ توطئة لمعرفة مقدار علمى الحقيقى كما قال».

«وقد طالت هذه المناورات بضع ساعات على خلاف المألوف فى الامتحان، ولا أكتمك أنى أرهقت بها إرهاقًا عقليًا وجسمانيًا، فطلبت نفسى شربة من الماء من شدة هذا الإجهاد، ولكنى غالبتها مخافة من الشيخ أولاً، وتأدبًا له ثانيًا، ولكنى بعد ربع ساعة أخرى فقدت زمام المغالبة، فطلبت من الشيخ عبده أن يأمر لى بكوب ماء، فكان طلبى هذا فاتحة خير آخر علىّ، وكأن الله ـ تعالى ـ أنطقنى به خصيصًا ليزيد فى شجاعتى وفى جلدى، فقد قال الشيخ محمد عبده: «أنت تستحق شرباتًا لا ماء.. فقد أحسنت أيما إحسان»، ثم أدخل الشيخ يده فى جيبه وأرسل فى طلب (سطل) من شربات (الخروب) فشربت، وشربوا، وبعد ذلك بقليل قال الشيخ: «لقد فتح الله عليك يا أحمدى، ووالله إنك لأعلم من أبيك، ولو كان عندى أرقى من

الدرجة الأولى لأعطيتك إياها»، فكانت هذه العبارة منه بعد شراب (الخروب) الذى اشتراه لى أثناء الامتحان حديث الناس فى الأزهر وقتئذ، وتناقلته الألسن بعد ذلك فى كل مكان، وكانت فى الحقيقة من أسباب سعادتى بعد ذلك».

ويعلق الشيخ الأحمدى الظواهرى بعد رواية هذه التفاصيل لابنه بقوله:

«فأنت ترى إذًا أن الشيخ محمد عبده كان رجلاً قوى الرأى، وقوى الأخلاق، فبالرغم مما كان بينه وبين والدى الشيخ إبراهيم الظواهرى من خلاف معروف، فهو لم يغمطنى حقى، ولم يرد أن يقلل من مقدار علمى».

(١٣)

ويتحدث الظواهرى عن تفضيله العمل فى الجامع الأحمدى بطنطا على العمل فى الجامع الأزهر نفسه، وذلك بعد نجاحه فى الشهادة العالمية، وهو يروى كيف قاد خطوات نفسه إلى الأستاذية فى هذا المعهد، ومن الطريف أن هذه الأستاذية «الإقليمية» مهدت لهذا الشيخ العظيم الطريق إلى مشيخة الأزهر الكبرى فى عصر لم يكن يعنى، كما أشرنا فى المقدمة، بالشكليات البيروقراطية السقيمة ولا يتوقف عندها، ونحن إذا تأملنا فى التاريخ الوظيفى للظواهرى على طريقة عصرنا فسنجد أنه لم يعمل أستاذًا فى الجامع الأزهر بالقاهرة، ومع هذا فقد وصل إلى أكبر مناصبه وهى مشيخة الأزهر، بل إنه أصبح كذلك مؤسس الجامعة الأزهرية الحديثة:

«... عندما نلت شهادة العالمية فى سنة ١٩٠٢، كان والدى فى هذا الوقت شيخًا للجامع الأحمدى، وكان هذا الجامع يحاكى الجامع الأزهر فى تدريس العلوم الدينية والعربية، ويريد أن يسابقه فيها، وكان به وقتئذ من الطلاب ما يزيد على الثلاثة آلاف، ومن العلماء المدرسين ما يزيد على المائتين، فلما عدت بعد تخرجى مع والدى إلى طنطا مقر وظيفته، اتجهت نفسى إلى أن أبدأ التدريس فى

الجامع الأحمدى، فبعد انقضاء إجازة الصيف وابتداء الدراسة، اتخذت لنفسى (عمودًا) من أعمدة الجامع وجلست إلى الطلاب بجواره أعرض نفسى عليهم، وكان علم النحو أول ما يقرؤه كل عالم جديد فبدأت أقرؤه ولكن على طريقتى الخاصة، فلم أبدأ بتفسير شرح الكفراوى كما كان يفعل باقى العلماء، وهو الكتاب الغامض المنفر. . . ، بل أخذت أرسم للطلبة الذين التفوا حولى طريقًا جديدًا لم يألفوه من قبل، هو أنى لم أقرأ لهم كتابًا من كتب النحو المعتادة، بل كنت ألقى عليهم دروسًا من مذكرات كنت أعدها خصيصًا لذلك وأتدرج فيها من السهل إلى الأصعب، متمشيا مع الطلبة باعتبارهم جميعًا مبتدئين، وكنت أقرّب القواعد إلى أذهانهم بواسطة عدد كبير من الأمثلة أضربها لهم لتثبت القاعدة فى أذهانهم، وكنت أحيانًا أستعمل سبورة سوداء وطباشير لأجل هذا الغرض».

(١٤)

ويتحدث الظواهرى عن نجاحه البارز والسريع فى إثبات أستاذيته على النحو الذى كان مأخوذًا به فى ذلك الوقت فى قياس النجاح فى أداء الأستاذية، وهو درجة إقبال الطلاب على راغبى الأستاذية، وهو يعترف بما قد يشعر به أمثاله من خطورة تجاوز القدر فى النجاح عن هذا الطريق، لكن حسن حظه يهيئ له فى شخص والده مَنْ يشجعه على المضى من نجاح إلى آخر:

«. . . وبعد أن عرفت أن هؤلاء الطلبة قد فهموا روح النحو وأمكنهم أن يفهموا ما فى كتبه، قرأت لهم كتابًا فى هذا العلم ظننته يفيدهم أكثر من شرح الكفراوى، وهو شرح الشيخ خالد، لذلك فإنه لم يمض وقت طويل بعد عرضى لنفسى على الطلبة، حتى التف الطلبة حولى وزاد عدد حلقتى يومًا بعد يوم، بل إنها صارت بعد قليل أوسع الحلقات وأكثرها ازدحامًا فى هذا العلم، فشملنى بذلك سرور عظيم».

«ولكن تدريسى لعلم النحو لم يطل كثيراً كما كنت أنتظر، ففى أثناء عامى الأول هذا فى التدريس، انتقل إلى حلقتى كثيرون من كبار الطلبة الذين كانوا قد قضوا فى طلب العلم سنين كثيرة، والذين كانوا يدرسون مع النحو علومًا أخرى أصعب وأدق، كالمنطق والأصول مثلاً، وكان بعض هؤلاء الطلبة يحضرون هذه العلوم فى حلقة والدى الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ الجامع؛ لأنه كان معنيّا أيضًا بالتدريس فوق أعمال الجامع الإدارية، وكذلك فى حلقات علماء آخرين، فلما انفصل هؤلاء الطلبة من حلقاتهم إلى حلقتى شعرت بالحرج فى أول الأمر، فقد أشفقت أن أكون متعديًا على والدى وباقى العلماء الآخرين الذين انتقل الطلبة من حلقاتهم، أو أن يكون فى مسلك هؤلاء الطلبة مساس بهم، ففاتحت والدى هذا واقترحت ألا أقبلهم فى حلقتى وأن أردهم إلى حلقاتهم الأصلية، ولكن والدى لم يوافق على اقتراحى وقال: «إن هؤلاء الطلبة هم محك العلم، والتفافهم حول العالم هو مقياس لدرجة علمه وقد جمعهم الله حولك، فلا تصرفهم أنت بيدك».

(١٥)

وسرعان ما يصبح هذا العالم الفذ قادراً على انتهاج أساليب تربوية خاصة به، أو كما يقول أهل التربية «الطرق الخاصة».

ويتحدث الظواهرى عن الأسلوب الذى اتبعه فى تدريس علم المنطق، على سبيل المثال، فيقول:

«. . . وفى أواخر العام الدراسى تقدم لى هؤلاء الطلبة القدماء برجاء أن أقرأ لهم أيضًا فى المنطق، ومع أن هذا كان طفرة كبيرة لأن العادة جرت بأن يبقى العالم يدرس النحو عددًا من السنين قبل أن ينتقل إلى العلوم العقلية، فقد أجبت طلبهم».

«وكان الكتاب الذى يدرس عادة فى هذا العلم (أى علم المنطق) كتاب اسمه «السلم بحاشية الباجورى» وكذلك شرح هذا الكتاب بحاشية الصبان. ولما كنت

قد طالعت جميع كتب المنطق المتداولة أثناء مذاكرتى للعالمية، فقد وجدت أن فى الكتاب الأول نوعًا من الموافقة لولا أن نصفه كلام على الخطبة، فيضيع الزمن فى غير المقصود، وكنت أرى أن هناك كتبًا أخرى أفيد منها للمبتدئين ككتاب الشمسية، وكتاب سلم العلوم، وكتاب البصائر الناصرية، وكتاب شرح بيرم على إيساغوجى، فاخترت كتاب الشمسية وقرأته لهم، فوفقنى الله فى [تدريس] المنطق كما وفقنى فى النحو، واجتمع حولى جمع كبير من طلاب المنطق كإخوانهم طلاب النحو، فزادنى ذلك ثقة فى نفسى».

(١٦)

ويشير الظواهرى إلى نجاحه فى العام التالى مباشرة لنواله العالمية فى القيام بتدريس أصعب العلوم الأزهرية وهو علم أصول الفقه:

«. . . ثم لم تكد السنة الدراسية الثانية تبدأ حتى كنت قد قفزت قفزة واحدة إلى تدريس علم الأصول أيضًا، وأخذت لذلك كتاب «جمع الجوامع» وهو أصعب كتاب فى ذلك العلم، فاجتمع الطلبة حولى فى تدريسه كما اجتمعوا من قبل فى النحو وفى المنطق».

«كان لقراءتى هذا الكتاب الكبير فى السنة الثانية بعد تخرجى حديثٌ فى الأزهر، فقد كان المتبع حتى ذلك الوقت أنه لا يتأتى لعالم أن يتجرأ على تدريسه قبل انقضاء عشر من السنين على الأقل يقرأ فيها العلوم التى هى أسهل من هذا العلم، وقد بلغ من اندهاش أهل الأزهر أن حضر كثيرون من علمائه وطلابه لطنطا لكى يعرفوا بأنفسهم هذا الخبر، فحضروا الحلقة بأشخاصهم وكان منهم الشيخ الموجى الذى كنت قد حضرت عليه وقتًا بالأزهر، وقد عادوا جميعًا والحمد لله مثنين».

«وبقراءتى «جمع الجوامع» استقر الحال فى تدريس الكتب الكبرى، فقرأت فى المنطق كتاب «تهذيب المنطق»، وفى التصوف كتاب حكم ابن (عطاء الله)».

ربما كان من الجدير بالإشارة إلى أن النص الذى بين أيدينا لنجل الشيخ الظواهرى يتحدث عن حكم ابن عطاء الله على أنه «حكم ابن عبد الله»، وهو يكرر الحديث على هذا النحو، ولهذا فإن وضعنا (عطاء الله) بين قوسين يدلان على تدخلنا فى الرواية.

(١٧)

ونقفز بعض الأحداث لنصل إلى المرحلة التى اكتملت فيها للظواهرى مقومات الأستاذية بمباشرته للتأليف.

يشير الظواهرى إلى أنه فى أثناء عمله بالتدريس بالمعهد الأحمدى شغل نفسه بالتأليف، وأنه وضع عددًا من الكتب، كان بعضها فى علوم «اخترعها هو نفسه» على حد تعبيره:

«... فى الفترة التى قضيتها ساكنًا هادئًا بعد نصيحة والدى لى بذلك عندما رأى اضطهاد الخديو وشيخ الأزهر لى من أجل رغبتى فى الإصلاح، رأيت أن أشغل وقتى بالتأليف فى المواضع التى لم يؤلف أو يكتب فيها بعد من الأبحاث العقلية التى كانت تخطر لى، فمن ذلك مثلاً اختراعى لعلم جديد أسميته «آداب الفهم» فألفت كتابًا فيه سميته «الكلمة الأولى فى علم آداب الفهم»، ثم كتابًا آخر سميته «خواص المعقولات فى أصول المنطق وسائر العقليات»، وكتابًا سميته «التفاضل بالفضيلة»، وآخر سميته «الوصايا والآداب»، ثم «صفوة الأساليب»، ثم «حكم الحكماء»، ثم «براءة الإسلام من أوهام العوام»، ثم «مقادير الأخلاق»، وكلها كتب تتناول موضوعات لم يعهدها الأزهريون من قبل، وقصدت بتأليفها فتحًا جديدًا لهم فى البحث وحضهم على عدم الاكتفاء بقراءة ما بأيديهم من الكتب أو العلوم القديمة المعروفة فقط».

ولسنا ندرى على وجه التحديد مصير هذه المؤلفات التى لم نعثر على نسخ

منها فى دار الكتب القومية، وإن كنا قد وجدنا إشارات إليها فى كتابات أساتذة كبار من طبقة الدكتور عثمان أمين.

(١٨)

ونأتى إلى بعض الملامح المبكرة فى طموح الظواهرى إلى التقدم فى مكانته العلمية والوظيفية.

يروى الشيخ الظواهرى قصة تصاعد طموحه المبكر إلى مشيخة المعهد الأحمدى بطريقة ممتعة، وهو يروى أن هذا الطموح وجد تشجيعًا واعترافًا على أرض الواقع حتى وإن لم يكن قد حظى بالتحقق السريع، وهو يروى قصة مقابلته للخديو عباس حلمى، ثم مقابلته لرئيس ديوانه، ثم مقابلته لواحد من كبار رجال الدولة، وكيف أنه عبر للخديو عن رغبته فى الإصلاح، وأن هذه الرغبة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال توليه منصب المشيخة، على حين أن فكرة الخديو عباس حلمى كانت تريد أخذ الأمور بالتدريج بتعيين الظواهرى وكيلاً وتعيين شيخ آخر مسن فى منصب المشيخة، وقد صارح الظواهرى الخديو رأيه بأن هذه الفكرة لا تضمن له القدرة على تنفيذ خطواته فى الإصلاح، ومع أن الخديو نبه الظواهرى إلى صغر سنه (٢٩ عاما) فإن الظواهرى لم يكن ليقتنع بمثل هذا الرأى، على حد روايته.

كذلك نرى أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى يحاول أن يعطى الظواهرى مهلة للتفكير حتى الرابعة مساء لكن الظواهرى، فيما يرويه، عاد بعد هذه المهلة متمسكًا برأيه.

وليس فى وسعنا إلا أن نعجب بهذا العالم الشاب الواثق من نفسه، القادر على أن يتخذ قرارًا مثل هذا دون خوف من غضب الحاكم، ودون استيئاس من وصوله، بعد حين، إلى ما يريد أن يصل إليه من موقع القيادة الممهد للإصلاح.

ولنتأمل فى هذه القصة المنبئة عن روح التوثب والدالة على وجود مجتمع كان يفيد من هذا التوثب ويوظفه حتى لو أنه طلب إلى التوثب أن يتمهل بعض الشىء:

«. . . فى أغسطس سنة ١٩٠٧ (أى بعد حصول الشيخ الظواهرى على العالمية بخمس سنوات فقط) توفى والدى الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ الجامع الأحمدى إلى رحمة الله، فخلت بذلك وظيفته وهى من الوظائف الدينية الكبرى فى مصر، فمقام شيخ الجامع الأحمدى من ناحية التعليم الدينى يلى مقام شيخ الجامع الأزهر، ويمكن لشاغل هذه الوظيفة إذا كان من راغبى إصلاح التعليم الدينى فى مصر أن يبدأ إصلاحه فى هذا الجامع، فعدد طلابه يقرب من الثلاثة آلاف، وعدد مدرسيه يزيد على المائتين».

«من أجل ذلك اتجهت نفسى لأن أرقى (أى: أحتل!!) وظيفة والدى المتوفى وهى وظيفة شيخ الجامع الأحمدى، فلعلى أكون فيها مفيداً، ولعلى أتمكن بواسطتها إذا حصلت عليها أن أنفذ فى هذا المعهد الكبير ما رسمته فى كتابى «العلم والعلماء» من برنامج للإصلاح. . وفعلا كاشفت الشيخ حسونة النواوى برغبتى هذه، لكنه عارضها بشدة».

(١٩)

وقد تحدث الأستاذ محمد عبدالجواد فى كتابه «حياة مجاور فى الجامع الأحمدى» عن الشيخ الظواهرى فى تلك الفترة التى شهدها وهو تلميذ فى الجامع الأحمدى، فقال:

«وقد ساعدنى الحظ بتلقى علم العروض عليه فى كتابه «المسلك الجديد» الذى ابتكره فى هذا العلم».

«كما أنى درست عليه جزءاً من كتاب «دلائل الإعجاز»، وقد سلك فى تدريسه مسلكًا غير ما ألفناه من سائر الشيوخ؛ لأنه كان يطلع الطلاب على خفايا

الكتاب ويوضح لهم مقاصد المؤلف، وقد يصور لهم بالحس ما كان يرمى إليه المؤلف بالذوق».

«وفى أثناء هذه المدة مرض والده (شيخ الجامع) فانتدب بدله وقتًا قصيراً، خرج فيه على المألوف من الإدارة: فأخذ يمر على الدروس، ويصلح للطلاب جلستهم، ويعلمهم كثيراً من أدب الاستماع والجلوس فى الدروس، وينهاهم عن قرن النعال بالمحافظ أمامهم وسط حلقات الدروس، ويمنع التشويش عليها، ويحرم على الطلاب مغادرة الدرس فى أثناء إلقاء الشيخ، ويمنع مرور العامة فى المسجد عند الدراسة. إلى غير ذلك مما كان إرهاصًا لاستعداده للتزعم والتمشيخ».

(٢٠)

ويروى الشيخ الظواهرى بصراحة ما عرفه من تفاصيل ترشيح غيره لشغل هذا المنصب الذى كان يتوق إلى توليه:

«. . . وبعد قدوم [يقصد: عودة] الخديو من أوروبا عرض الشيخ حسونة شيخ الأزهر عليه أمر تعيين شيخ للجامع الأحمدى خلفًا للمرحوم والدى، ورشح من جهته الشيخ الفقى الذى كان قد انتدبه من قبل، لكن الخديو طلب أن يقابل الاثنين: الفقى أولاً، والأحمدى الظواهرى ثانيًا ليختار بنفسه بينهما».

«وعندما تشرفت بمقابلة الخديو قال لى: إننى طلبتك بعد أن طلبت مرشح الشيخ حسونة، وأنا لا أرى فيه كفاءة، وأنا ألاحظ أنك لا تزال صغير السن وإنى أحب أن أعين أحد كبار السن شيخًا للمعهد وأنت وكيله».

«فأجبت الخديو: «إننى لا أطمع فى الوظيفة للمال، لأنى غنى عن المال بحمد الله، ولكنى أريد أن أعمل، ولى طريقة أريد أن أنفذها وهى تغضب كثيرين من المتقدمين فى السن، وأخشى أنه إذا عين شيخ غيرى يلتف العلماء حوله

وينضمون إليه ويتركوننى فأعجز عن تنفيذ ما أريد من الإصلاح، وبذلك أظهر بمظهر الفشل».

«فقال الخديو: «هذا كلام معقول» وتمت المقابلة».

«وبعد خروجى استدعانى أحمد شفيق باشا، وقال لى: ما هو سنك؟ فقلت: تسعة وعشرون عامًا، فقال: إن مولانا يقدر مواهبك، وقد سر كثيراً من كتابك «العلم والعلماء»، ثم إن أعيان الغربية كلهم يثنون عليك، ولكنه لا يزال يرى أن هذا المنصب الدينى المهم يجب أن يشغله عالم مسن، وأنت لا تزال صغير السن، فليس فى لحيتك شعرة واحدة شائبة، وهو قد اختار لك أن تكون الآن وكيلا تمهيداً للمشيخة فى الوقت المناسب، فقلت: «إنى أشكر الجناب الخديوى وأشكر سعادتكم، ولكنى لا أزال فى موقفى، فإما شيخًا فأقوم بالإصلاح، وإلا فسأبقى مدرسًا كما أنا».

«فقال شفيق باشا: «نحن الآن الظهر، فاذهب وتغد واستشر نفسك جيداً ثم عد إلىّ فى الساعة الرابعة للنتيجة النهائية».

وفى الساعة الرابعة ذهبت إليه، وقلت له: «إنى لا أزال على رأيى» فدخل على الخديو ورجع يقول: «إن مولانا يأسف على عدم إجابة طلبك».

«فانصرفت مفضلاً أن أكون مدرسًا عاديّا عن أن أكون وكيلاً للمعهد».

«وبعد يومين صدر الأمر بتعيين الشيخ محمد المحلاوى الرفاعى، وهو من المسنين، شيخًا للمعهد، وتعيين الشيخ عبد الله دراز وكيلاً له، ثم بعد قليل استبدل بالشيخ الرفاعى شيخ آخر هو الشيخ محمد حسنين العدوى، فقد ظهر كما تنبأت أن الشيخ الرفاعى المحلاوى لا يمكنه القيام بأعمال المشيخة».

. . . . . .

ربما كان من الجدير بالإشارة أننا لا نجد اسم الشيخ الفقى الذى قابله الخديو قبل

مقابلته للظواهرى بين هذه الأسماء الثلاثة التى يروى الظواهرى أنها تولت المسئولية عن الجامع الأحمدى فيما بعد.

(٢١)

ثم يتحدث الشيخ الظواهرى بامتنان عن فضل الخديو عباس حلمى فى نواله منصب شيخ الجامع الأحمدى على الرغم من محاولة سلفه الشيخ مخلوف (الذى كان قد أصبح مديراً للمعاهد ووكيلاً للأزهر) أن يرشح غيره لهذه الوظيفة، وربما يروقنا أن نرى الأعيان (أعيان الغربية) أصحاب كلمة عند الخديو فى مثل هذا الأمر، كما قد يروقنا أيضًا أن يعنى الخديو بنفسه بإنجاز القرارات المنفذة لهذه الاختيارات، حتى إنه يطلب من وكيل الأزهر عقد مجلس الأزهر الأعلى فى اليوم التالى مباشرة ليتم المجلس إجراءات شغل الشيخ الظواهرى لمنصبه الجديد:

«... فى حوالى النصف الأول من سنة ١٩١٣ نقل الشيخ محمد حسنين العدوى شيخ الجامع الأحمدى إلى وظيفة جديدة أنشئت له خصيصًا فى الأزهر وهى وظيفة مدير المعاهد الدينية، فقد كان الخديو وقتئذ (ليس راضيًا) عن الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الأزهر، ولكنه لم يرغب فى إقالته، فأراد أن يقوم الشيخ محمد حسنين بإدارة شئون الأزهر بدله فى هذه الوظيفة الجديدة».

«ولكن لما لم يكن لهذه الوظيفة اعتماد فى الميزانية، فقد ظل الشيخ محمد حسنين مخلوف مدير المعاهد يصرف مرتبه من اعتماد وظيفة شيخ الجامع الأحمدى التى كان فيها، لذلك بقيت هذه الوظيفة الأخيرة خالية بضعة شهور، فلما استقال الشيخ محمد شاكر من وظيفة وكيل الجامع الأزهر عين الشيخ محمد حسنين وكيلاً للجامع الأزهر بدله مضافًا إلى وظيفة مدير المعاهد فتوفر بذلك المال (يقصد: خلت الدرجة المالية الممولة بلغة عصرنا) وأصبح لزامًا تعيين شيخ جديد للجامع الأحمدى».

«فتطلعت الأنظار مرة أخرى إلىّ، وزارنى كثيرون من أعيان الغربية يريدون تجديد عريضتهم للخديو بطلب تعيينى فى هذه الوظيفة، فشكرتهم، ولكن طلبت منهم الكف عن ذلك، فإنى قدرت أن الخديو لابد سينظر فى الأمر هذه المرة بغير العين التى نظر لى بها فى المرة السابقة، فإن عقبة صغر السن التى قامت فى سبيل تعيينى فى المرة الأولى سنة ١٩٠٧ عقب وفاة والدى قد زالت الآن. . وفعلاً قد صح تنبئى، فإن الخديو هو الذى رشحنى لمشيخة الجامع الأحمدى، وأصر على ترشيحى بالرغم من معارضة بعض المشايخ».

«. . . قابل الشيخ محمد حسنين مخلوف مدير المعاهد وصاحب الرأى وقتئذ فى الأزهر، محمد سعيد باشا رئيس النظار (رئيس الوزراء) وعرض عليه اسم الشيخ محمد هارون وكيل الجامع الأحمدى ليكون شيخا له، ثم قابلا الخديو لهذا الغرض فلم يوافق الخديو، وحينئذ دافع محمد سعيد باشا عن نفسه فقال: «إن الذى رشح الشيخ هارون هو الشيخ محمد حسنين مخلوف وليس أنا، ونحن تحت أمر أفندينا»، وعندئذ قال الخديو: «عين الشيخ الأحمدى الظواهرى فى هذه الوظيفة، فهو الآن كفؤ لها»، ثم التفت إلى عثمان مرتضى باشا تشريفاتى الخديو وكان حاضرا الاجتماع، وقال له: «اكتب أمرًا بذلك»، فقال الشيخ محمد حسنين للخديو: «إن القانون يجعل أمر الترشيح لمجلس الأزهر الأعلى ثم بعد ذلك يصدر أمر مولانا، فقال الخديو: إذًا يعقد مجلس الأزهر غدًا».

«وفعلا عقد المجلس ورشحنى، وفى اليوم الثانى صدر الأمر الخديوى بتعيينى شيخًا للجامع الأحمدى، وكان ذلك فى شهر يناير سنة ١٩١٤».

(٢٢)

هكذا بدأ الشيخ الظواهرى يمارس صلاحياته التعليمية من خلال هذا الموقع المتقدم، وهكذا بدأت خبرته بإدارة الأمور تتبلور على نحو منظم أفاده فيما بعد.

وقد أتيح للظواهرى أن يصبح من المؤثرين فى سياسة التعليم الأزهرى، وذلك من خلال اختياره عضواً فى المجلس الأعلى للأزهر:

«... وبتعيينى عضواً فى مجلس الأزهر الأعلى أتيحت لى فرصة الدفاع عن آرائى وعن تقريراتى، ولكنى رأيت أن أفتتح مجهوداتى فى هذا المجلس بالعمل على تحسين مرتبات العلماء، فقد كانت مرتباتهم ضئيلة جدّا، وكانت الحكومة فى هذا الوقت قد أعطت موظفيها علاوة قدرها عشرون فى المائة مساعدة لهم على غلاء الحرب ولم تعطها للعلماء وباقى موظفى الأزهر والمعاهد الدينية، فطلبت مقابلة السلطان، والتمست منه الأمر بتقرير هذه الزيادة، فأجاب طلبى وصدر الأمر به».

(٢٣)

ونأتى إلى ما هو معتاد فى السياسة من تعرض كبار الموظفين لتقلبات الملوك إذا ما كان هؤلاء الموظفون الكبار محسوبين على شيعة أخرى مناوئة للحكم الجديد أو يناوئها الحكم الجديد. وهذا هو ما كان حادثًا فى ظل الخلاف المستحكم بين الملك فؤاد وبين الخديو عباس حلمى.

ويروى الشيخ الظواهرى أن مساعى السوء نجحت فى الإيقاع بينه وبين الملك فؤاد، ونحن نفهم أن مثل هذا الخلاف كان نتيجة طبيعية لمناخ الاستقطاب بين الخديو عباس حلمى والملك فؤاد، لكننا نرى من واجبنا أن ننقل ما يرويه الظواهرى عن نشأة هذا الخلاف أو الفتور من خلال واقعة لعب دور البطولة فيها حسن نشأت، الذى كان وكيلاً للديوان الملكى، وعضواً فى مجلس الأزهر الأعلى.

ويعزو الظواهرى السبب فى هذه الدسيسة إلى أحد العلماء الذين أحسن إليهم، وهو الشيخ حسين والى، وقد كان وكيلاً للشيخ الظواهرى فى المعهد الأحمدى فى طنطا، ثم رشحه الظواهرى ليشغل منصب سكرتير المجلس الأعلى للأزهر.

ويعترف الظواهرى بأن هذه الدسيسة نجحت، وأن السلطان فؤاد قد صدر أمره بنقله إلى معهد أسيوط على أن يكون فى أسيوط فى صباح اليوم التالى.

ومن الطريف أن السلطات نقلت شيخ معهد الإسكندرية شيخًا للمعهد الأحمدى بطنطا، وكلفته بحمل أمر نقل الظواهرى إليه، وكأنما كان شيخ معهد الإسكندرية فى القاهرة ينتظر صدور هذا الأمر، أو كأنما وجد فى القاهرة مصادفة فكلف بهذا.

«. . . فى وسط التوفيق الذى قدر الله لى أن أنعم به عند السلطان فؤاد لصالح الأزهر والأزهريين، وبعد أن نجحت فى فكرة تأليف لجنة لتعديل درجات العلماء وإنصافهم كانت هناك نفس حائرة تتلمس فرصة مناسبة لتدبير مكيدة لى فى الخفاء، هى نفس عالم جليل كان فى وقت ما وكيلاً لى فى الجامع الأحمدى فأحسنت إليه أكثر مما يحسن الشيخ عادة للوكيل، فقدمته فى مواضع التقديم، وأكرمته فى مواضع التكريم، ثم رشحته بعد ذلك إلى وظيفة سكرتير مجلس الأزهر الأعلى، وهى وإن تكن وظيفة قوامها الكتابة وليس لها قرابة بالعلم إلا أن مرتبها أكبر من وظيفة وكيل معهد طنطا، ومن هنا كانت جذابة إليه، فعين فيها بناء على توصيتى».

«مع هذا الصنع الحسن من جانبى فإن نفس الشيخ لم تستقر، وهناك حكمة تقول: «اتق شر مَنْ أحسنت إليه»، وقد أحسنت إلى هذا الشيخ، ولكنى فى الواقع لم أتق شره عملاً بتلك الحكمة، فعلى أثر خلاف فى الرأى وقع بينى وبين حسن نشأت باشا بمجلس الأزهر الأعلى فى شأن درجة وظيفة سكرتير مجلس الأزهر الأعلى وهى التى كان يشغلها وقتئذ ذلك العالم، وعلى أثر نعتى لهذه الوظيفة بأنها فى الحقيقة وظيفة كتابية ويجب أن لا تدرج مع الوظائف العلمية، تحركت نفس الشيخ فاتخذ من المشادة التى وقعت بينى وبين نشأت باشا فى هذا الموضوع أرضًا خصبة يبذر فيها بذور الدسيسة والوقيعة، فاخترع لنشأت باشا وقائع مكذوبة نسبها إلىّ وطلب منه تبليغها للسلطان، وهى وقائع لو صحت

لكانت حقّا جسيمة وكانت حقّا دنيئة، بل لكانت أكثر من ذلك خطورة وخطراً، فإنها ترمى إلى اتهامى بخيانة العرش والعمل على إنزال السلطان فؤاد عن أريكة محمد على».

«. . . لكن الذى أدهشنى أن نشأت باشا، على غير ما كنت أنتظره منه وهو الرجل السياسى المحنك، وصاحب الذكاء النادر الذى شهدت له به عند السلطان نفسه فى وقت ما، تسرع فصدق حكاية الشيخ، ولعله كان متأثراً أيضًا من مشادتى معه فى المجلس فأبلغ السلطان ما قاله العالم عنى [فصدقه] السلطان لأنه كان شديد الثقة بنشأت باشا، فأمر السلطان على أثر سماعه للوقيعة بنقلى إلى أسيوط فوراً وبدون أى إرجاء، فوصلنى الأمر الملكى بطنطا (مفاجأة) يحمله الشيخ عبد الغنى محمود شيخ معهد الإسكندرية وهو الذى نقل مكانى، وقد قصد نشأت باشا بذلك سرعة التنفيذ مع التشفى، فقد طلب إلىّ أن أكون بأسيوط فى صباح اليوم التالى، أى أنه كان لا بد لى أن أسافر من طنطا فى نفس المساء الذى تسلمت فيه الأمر بنقلى».

(٢٤)

ويتحدث الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى بكل صدق عن شعوره بالأسى نتيجة لنقله إلى معهد أسيوط، وذلك بسبب ما أحسه من العقوبة والمكيدة فى هذا القرار بسبب صغر شأن معهد أسيوط إذا ما قورن بمعهد طنطا، فضلاً عما كان يستتبعه هذا القرار من خروجه من عضوية مجلس الأزهر الأعلى.

وهو يروى أنه أخذ يفكر فى الاستقالة بعدما كان يتوقع لنفسه مستقبلاً باهراً، وبخاصة أن السلطان فؤاد نفسه كان قد صرح له بترشيحه لمشيخة الأزهر:

«كانت هذه الليلة من الليالى السود فى حياتى، فمعهد أسيوط معهد صغير جدّا بالنسبة لمعهد طنطا، ثم إنى بنقلى إليه لم أعد عضواً فى مجلس الأزهر

الأعلى، وها أنا قد وصلت الآن فى طنطا وفى مجلس الأزهر إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من النجاح، وها هم الناس العقلاء يشهدون بأعمالى ويتنبأون لى بمستقبل باهر، بل ها هو السلطان فؤاد نفسه قد رشحنى بحفل طنطا لمشيخة الجامع الأزهر عندما زارها فى أول عهده . . . فهل هذه زوبعة عاصفة ما تبرح أن تمر وتنقضى، أم أن هذه هى خاتمة المطاف، وأن الله قدر لى الاعتكاف فأستقيل من منصبى هذا الجديد ساخطًا محتجّا!».

(٢٥)

ولا ينبغى لنا أن نهمل الحديث عن موضوع الدسيسة التى ينسب الظواهرى إلى الشيخ حسين والى أنه كان السبب فيها.

والحاصل أن هذه الدسيسة كانت تدور حول أن للظواهرى علاقة وثيقة ومستمرة بالخديو عباس، ونحن نعرف أن الدعوة لعودة الخديو عباس إلى عرشه كانت هى أكثر ما يقلق الملك فؤاد، ويجعله ينحاز لأى دسيسة ضد مَنْ يتهم عنده بهذه التهمة.

ومن الطريف أن جوهر هذه الدسيسة على نحو ما صوره الظواهرى كان حصول مندوب الخديو عباس على قطعة من الشال الأخضر الموضوع فوق عمامة السيد البدوى لكى تتبرك بها السيدة أمينة هانم والدة الخديو عباس حلمى التى كانت تعيش فى إستانبول.

وتشير مذكرات الظواهرى إلى أن الشيخ حسين والى سكرتير المجلس الأعلى للأزهر هو الذى جعل نشأت باشا يبلغ السلطان أن بين الظواهرى وبين الخديو عباس الثانى صلة متينة «من قديم الزمن» لأنه هو الذى عينه شيخًا للجامع الأحمدى، وأن هذه الصلة لا تزال موجودة للآن، وأن «الظواهرى أحد وكلاء الخديو فى دعايته للرجوع إلى مصر»، وأن محمد عزت أفندى باشكاتب الجامع

الأحمدى يسافر إلى إستانبول من وقت لآخر لينقل الرسائل بين الخديو والظواهرى!!

وهذه هى الرواية التى يوردها ابن الظواهرى على لسان والده:

«... حدث مرة عندما كان الشيخ حسين والى هذا وكيلاً لى بمعهد طنطا وقبل أن أسعى لترقيته سكرتيراً لمجلس الأزهر الأعلى، أن تقدم إلىّ عزت أفندى باشكاتب المعهد وطلب منى بصفتى شيخ الجامع أن آذن له ـ كما آذن لجميع الناس ـ بقطعة من الشال الأخضر الذى تعمم به عمامة قبر السيد البدوى وتغير فى كل عام، ويطلب الناس قطعًا منها تبركًا بولى الله وتذكرة به، وقال الباشكاتب: إنه سيحمل هذه القطعة إلى أمينة هانم أم الخديو عباس بإستانبول، فقد أوصته بها منذ العام الماضى وألحت فى التوصية، ولما كان هذا الطلب فى نظرى عاديًا ولم يخطر ببالى وقتئذ أنه يجوز أن يكون محل اعتراض من أحد، فقد أذنت له طبعًا بأخذ قطعة الشال التى يطلبها، كما آذن لجميع الناس الذين يطلبون مثلها».

«فسماح الأحمدى بهذا الشال لباشكاتب الجامع يحمله لأم الخديو بإستانبول هو إذًا هيكل الدسيسة، وهو فى نظر الشيخ والى الشىء العظيم الذى سيوقع الأحمدى حتمًا والذى سيفرق بينه وبين السلطان فؤاد حتمًا، وحينئذ ينقص تقدير السلطان للأحمدى، وتنتهى معه آماله».

(٢٦)

وعلى الرغم من هذا الإحباط الذى واجه الشيخ الظواهرى فإنه كان حريصًا على أن ينجز خطوات جادة فى سبيل الإصلاح الأزهرى فى أثناء عمله شيخًا لمعهد أسيوط.

ونحن نراه قد بدأ ينتبه إلى منحى آخر من مناحى الإصلاح التعليمى، وهو تشييد أبنية المعاهد العلمية بما يكفل لها أداء وظيفتها على نحو أمثل.

وفى هذا الصدد يذكر التاريخ للظواهرى جهده فى إنشاء معهد أسيوط الدينى على النحو الذى أنشئ عليه.

وقد كان الظواهرى حريصًا على اختيار موقع معهد أسيوط الدينى على النيل مباشرة. وقد تمكن من الحصول على موافقة السلطان فؤاد على تخصيص هذا الموقع.

وقد برر الظواهرى إصراره على هذا الاختيار بقوله إنه استهدف منه أن يعرف السائحون أن «بجوار بناء البعثة الأمريكية بهذه المدينة، وهى البعثة التى تنشر الدين المسيحى، معهدًا ومبنى فخمًا ينشر الإسلام أيضًا».

كذلك نجح الشيخ الظواهرى فى أسيوط فى العمل على إنشاء جمعية للمحافظة على القرآن الكريم، وهو يروى أنه لاحظ أن الناس فى أسيوط لا يهتمون باستظهار القرآن كما كانوا يهتمون به فى طنطا، بل إن الجزء الذى يعرفه الطلبة من القرآن فى المدارس والكتاتيب فى أسيوط لا يبلغ ربع ما يعرفه إخوانهم بطنطا أو غيرها من مدن القطر الأخرى، وقد رأى أن أفضل طريق لإذكاء رغبة استظهار كتاب الله فى صدور أهل أسيوط هو إنشاء جمعية تعمل من أجل هذا الهدف.

(٢٧)

وفى هذه الفترة التى كان الظواهرى مبعدًا فيها فى أسيوط بدأ عالمنا الجليل خطًا جديدًا من النشاط السياسى المباشر. فقد تولى الشيخ الظواهرى تشكيل لجان مؤتمر الخلافة فى الصعيد، ويبدو أنه عهد إليه بمسئولية الوجه القبلى كله على نحو ما نعرف فى بعض تنظيماتنا السياسية، وهو يتحدث عن هذا المنحى فيقول:

«ولما عهد إلىّ بتشكيل لجان للخلافة فى أقاليم الصعيد استعنت فى ذلك بكبار الوفديين والدستوريين، وقمت برحلتين، إحداهما جنوبًا من أسيوط والأخرى

شمالها، فذهبت فى الأولى إلى قنا، ثم عدت إلى نجع حمادى، وكان يرافقنى فى هذه الرحلة محمد بك عبد الآخر عن طريق الصدفة، وهو من كبار أعيان تلك البلاد، فتمكنت من تشكيل اللجان فى تلك الأقاليم، وعاوننى أعيانها فى ذلك معاونة عظيمة، ثم بعد قليل بدأت رحلتى الشمالية إلى المنيا وبنى سويف، وفى هذه الرحلة تعرفت بالشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ عبد الرحمن حسن، وكانا قاضيى المحكمتين الشرعيتين، فكانا لى نعم العون فى تأليف لجان الشمال».

(٢٨)

وقد كان من حسن حظ الشيخ الظواهرى أن زار الملك فؤاد أسيوط وهو فى طريقه لافتتاح قناطر نجع حمادى، وهناك رأى الملك فؤاد بنفسه حجم الإنجاز الذى حققه الشيخ الظواهرى، كما رأى المكانة التى وصل إليها بين أهالى ذلك الإقليم.

وقد ظل الشيخ الظواهرى فى مشيخة معهد أسيوط حتى رشح هو والشيخ المراغى لمشيخة الأزهر، فلما تم اختيار الشيخ المراغى لمشيخة الأزهر (١٩٢٨) أعيد الظواهرى إلى مشيخة المعهد الأحمدى مستعيداً منصبه القديم، وكانت هذه أقل ترضية يمكن تقديمها له.

(٢٩)

وعلى نحو ما نعرفه من حقائق التاريخ، فإن عهد الشيخ المراغى الأول بمشيخة الأزهر لم يدم إلا نحو عام، واضطر إلى ترك منصبه، وكان من المنطقى أن يدفع الملك فؤاد مرة ثانية باسم مرشحه الأثير وأن يصمم عليه، وهكذا عين الشيخ الظواهرى شيخًا للأزهر فى أكتوبر ١٩٢٩.

وفى ذلك الوقت كان الشيخ عبد اللطيف الفحام وكيلاً للأزهر، وكان يشغل من قبل منصب شيخ معهد الإسكندرية، وهكذا ظلت هذه الوظيفة خالية

فرشح لها الشيخ الظواهرى الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ القسم العالى بالأزهر، وكان هذا أول اختيار يتولى الظواهرى أمره، وقد نم عن تقديره للرجال ولأهل العلم أما وظيفته هو فى طنطا فقد طلب من الملك التمهل فى تعيين من يخلفه فيها.

ومن عجائب الأقدار أن الشيخ الظواهرى ظل مريضًا ثلاثة شهور بعد اختياره لمنصب شيخ للأزهر.

ومع أن تاريخ الأزهر لم يسجل معلومات دقيقة عن تعاقب العلماء على مناصب الأزهر ومعاهده إلا أننا قد وجدنا أسماء زعماء المشايخ المعاصرين للظواهرى عند إصدار قانون الأزهر فى خبر نشرته جريدة الأهرام فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠: وكانوا هم الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ علماء الإسكندرية، والشيخ عبد الحكم عطا شيخ معهد الزقازيق، والشيخ محمود الدينارى شيخ معهد طنطا، والشيخ عبد الله دراز شيخ معهد دمياط، والشيخ محمد السرتى شيخ معهد دسوق، والشيخ محمود القطيشى شيخ القسم العالى بالأزهر، والشيخ عبد الهادى الضرغامى شيخ القسم الثانوى بالأزهر، والشيخ فرغلى الريدى شيخ القسم الأولى بالأزهر».

(٣٠)

ظل الشيخ الظواهرى شيخًا للأزهر حتى ١٩٣٥ ومارس سياسات إصلاحية ذكية سوف نتناولها بالتفصيل فى الأبواب التالية، لكن عنف السياسة الحزبية دفع بصراع الأزهر إلى خضم المنازعات السياسية، وانتهى الصراع السياسى والاجتماعى إلى حالة استقطاب حادة جعلت المطالبة بإعادة الشيخ المراغى تتحول إلى هدف جوهرى للتظاهرات والتجمعات الأزهرية الشابة.. ولم يكن بد أمام سلطات البريطانيين والقصر والوزارات من أن يعاد الشيخ المراغى!! وبالتالى ترك الظواهرى منصبه فى ١٩٣٥.

وعاش بعدها قرابة عقد من الزمان مع علمه وحياته الدينية والصوفية فى هدوء ورضا نفسى.

* * *

وفى أخريات أيامه أصيب الشيخ الظواهرى بضعف فى لسانه، فما كان يقوى على الكلام إلا بصعوبة، ثم اشتد هذا الضعف تدريجيّا على مر الشهور والسنين، حتى لم يمكنه أن يخاطب أحداً من الكتّاب.

وقد توفى الشيخ الظواهرى فى مساء اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٤ ميلادية، الموافق عشرين جمادى الأولى سنة ١٣٦٤ هجرية.

(٣١)

بقى أن نشير إلى أن كتاب «السياسة والأزهر» الذى تعتبره بعض الكتابات التاريخية بمثابة مذكرات الشيخ الظواهرى، لا يتضمن ما ينطبق عليه هذا الوصف بدقة وإنما هو فصول من الذكريات سجلها بأسلوبه الدكتور فخر الدين نجل الشيخ الظواهرى، ومن الواضح أن ثقافة هذا الابن الأزهرية والدينية كانت أقل مما يتطلبه تسجيل مثل هذه المذكرات، حتى إن هذا الابن البار كان يتصور أن النزاعات الوظيفية والدسائس أهم بكثير من صراع الأفكار والتوجهات الفقهية والدينية نفسها.

* * *

وقد روى الدكتور فخر الدين الظواهرى ما يشى بطبيعة كتابته لمذكرات والده فى مقدمة كتابه فقال:

«... يظهر أن فكرة تدوين كتاب يخرج للعالم الإسلامى عن حياة الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر، ومنشئ الجامعة الأزهرية الحديثة، وصاحب كتاب العلم والعلماء، لم تطرأ لى أنا وحدى أو تخطر ببال

رجل واحد، بل اتضح أن هذه الفكرة كانت تخامر أيضًا عددًا من كتّاب العصر المؤرخين والباحثين وراء الحقيقة. فقد رأى هؤلاء ـ كما رأيت ـ أن هذا الشيخ لم يكن أزهريّا عاديّا، وكانت له فى حياته حوادث لم تكن حوادث عادية، وكان له فى الأزهر وفى العالم الإسلامى آثار لا بد للمؤرخ من تدوينها، فزاره لهذا الغرض نفر من خيارهم، وطلبوا إليه أن يوافق على فكرتهم، وأن يمدهم بما عنده من معلومات ووثائق لتكون عونا لهم على الكتابة، فلما أحس الشيخ منى تقصيراً فيما كنت قد وعدته به من قيامى أنا شخصيّا بهذا العمل، أعطى الذى سبق منهم كثيراً مما طلبه من الوثائق والمذكرات، وقص عليه أيضًا بعضًا مما كان قد حكاه لى، لكن قبل أن يبدأ هذا المؤرخ الفاضل فى تأليف الكتاب الذى انتواه، فاجأته المنية بغتة، فقفلت بذلك صحيفة تأليف الكتاب على يديه».

* * *